"مونتاج" عن غسان ... و"الرجال ... والبنادق"

بقلم : محمد دكروب

ـ أعد ، هذه الايام ، لدراسة طويلة عن القصة الفلسطينية ، ولا أملك من كتبك سوى مجموعتك الاخيرة ((عن الرجال والبنادق)) ... اربعة المجموعات السابقة .

ابتسم غسان . وجه نحوي نظرة تحمل الكثير من ((العتب السياسي)) .

ـ ساهديك المجموعات السابقة ... ولكن ، هل ستكتب عن قصصي ، فعلا ؟ وجهت اليه نظرة تحمل ، كذلك ، الكثير من ((العتب السياسي)) .

ـ لست من المتحمسين ... ثم ان الفن يفرض نفسه ، والقضية اهم من اي خلاف سياسي عابر آخر ..

ـ سنرى يا محمد يا دكروب !

◇◇

بعد فترة ، قدم لي غسان المجموعات التي احتاجها .. ومر شهر وشهر . والتقينا .. نظرة « العتاب السياسي » نفسها ..

ـ سنري يا محمد يا دكروب !.. لن تكتب .

ـ وحياتك يا غسان ، سافرت ، غبت عدة اشهر وتزوجت ، وعدت ، وغرقت بالشغل ، ولم ابدأ بعد بأعداد الموضوع ..

ـ يمكن ، بعد الولد الاول !

ـ لا ، قبل .

ـ سنرى يا محمد يا دكروب !

◇◇◇

... سألت عن روبير غانم في « الآداب » ، فرد غسان :

ـ شو .. استقبلت الولد الاول ؟

ـ لا .. قرأت مجموعاتك كلها .

ـ انجاز عظيم .. وهل دخلت هذه القصص في مقاييس النقد التقدمي، الواقعي، الاشتراكي، الماركسي ؟.

ـ قلت سابقا : الفن يفرض نفسه ... وبحكم المقاييس اذا كانت ضيقة ، وقاصرة .. ويفرض على النقد مقاييس جديدة ..

ـ ما فهمت !.. المهم .. شو رايك ؟

ـ رايي : ان الحركة التصاعدية في ادب غسان كنفاني ، في مضمون هذا الادب ، وفي بنائيته الفنية ، ترافق تصاعد حركة الشعب الفلسطيني نفسها ، من الشتات والضياع واليأس ، الى التحفز ، والغضب ، والمقاومة .

ـ بكل تواضع ، هذا صحيح .. لكن هل ستكتب هذا ؟.. ام تنتظر بعض الظروف ؟..

ـ الظروف دائما مؤاتية للكتابة عن الادب الاصيل .

◇◇◇

... وبدأت اشتر بعض الفصول عن القضية الفلسطينية داخل الارض المحتلة .. واعيد ، في الوقت نفسه ، قراءة قصص غسان ، واضع الملاحظات والاشارات التي ساعتمدها ، فيما بعد ، كمواد اولية للدراسة .

وكنت خجلا من نفسي ، لانني لم استطع ان انصرف ، كما ينبغي ، الى اعداد هذه الدراسة خاصة وان قصص غسان هي من القصص النادرة في ادبنا العربي التي يتبلور فيها ذلك الاندماج السعيد ، الغضوي بين الفن والقضية ، بعيدا عن اية تخطيطية ذهنية تفقر الفن وتشوه القضية معا . ثم كان لا بد لي ان اكتب مفصلا عن ظاهرات الحداثة في قصص غسان ، من حيث النظرة والرؤية ، ومن حيث تداخل اساليب الفنون الاخرى ، وخاصة السينما ، في التركيب الفني للقصة ، وفي (الفن ـ الكاميرا) التي نرى من خلالها الى الناس والاحداث والطبيعة والاشياء في هذه القصص .

◇◇◇

بعض « الادب » ، بعد صمونة في الكتابة عنه لفرط ما هو فقير .. على انك تجد صمونة اكثر في الصدى للكتابة عن الادب الاصيل لفرط ما هو غني ، ولكثرة ما طرح من القضايا على صعيد الفن ، والحياة ، والموقف ، وعلى صعيد النقد بشكل خاص . فكلت اهيب الدخول الى عالم غسان الفني ، المتعدد الجوانب ، وحبك مصائر الافراد ، وصراعاتهم ، هي وجوه متعددة لمصير شعب كامل ، وللحمة هذا النسيج الشعب ومأساته ، ونضاله ، وثورته ، والآلاف مني شهدائه .

◇

وعندما سمعت ما الجريدة .. وان جسد غسان قد نزل .. شعرت ، مع الحزن والغضب ، بسكان الخجل يتوغل عضلا داخل نفسي ..

ـ لن تكتب .

◇◇

ـ بل عدت يا غسان .. لا تلمني .. وكنت اطمح ان اسمع منك انت ، رايك العدي في هذه الدراسة ، وقد عودتنا صراحة النقد ، تحت اسم « فارس فارس » ، بما لا تتحمله اعصاب الكثيرين من كتابنا وشعرائنا القدامى مرضهم النقد .. كنت اطمح .. وكنت اخجل ولكثر ..

◇◇

.. وهذه مؤلفاتك الآن بين يدي ، من جديد ، وفي مجموعة « من الرجال والبنادق » بعض اوراق مطوية ، فيها بعض اشارات وبعض ملاحظات سبق ان دونتها .. كمواد اولية للكتابة عن هذه المجموعة خصوصا ، ومن قبلها ، اقدمها لك الآن ، كما هي ، اداري بها بعض خجلي العميق .

ـ مونتاج سينمائي واضح .

■ عين اشبه بالكاميرا . تصوير متحرك . موجز . يرسم لوحة واسعة دقيقة ذات تفاصيل، وبايجاز مدهش : (وصف زقاق البلدة مثلا خلال المعركة ـ ص٤١) .

■ .. « انت لا تستطيع ان تسأل مقاتلا لماذا تقاتل ؟.. كانك تسأل رجلا لماذا انت ذكر » (ص٤٧) .

■ مشهد البرميل وسط الساحة والرصاص.

ليست مهمة نقدية او فكرية فحسب ، بل هي مهمة كفاحية خصوصا وبالدرجة الاولى .

● اشارات وهوامش حول الرجال والبنادق ●

■ .. في هذه المجموعة ايضا ، بعد « رجال في الشمس » و « ما تبقى لكم » ، تلمس مدى تأثر غسان بفن السينما .. فنية مثل الكاميرا .. وهي هنا تصور حركة الناس والاشياء ، وتنظر الى الاعمال .

يخيل لي ان كتاب السارتو لن تموت كثيرا في تحويل اعمال غسان الى افلام .

■ في فصل « الصفر يستعر مرتين خاله » يتعامل الكاتب مع المرتسة كما يتعامل مع اية شخصية انسانية حية في القصة .

■ المونتاج البارع في فصول هذه المجموعة يذكرنا بمونتاج « رجال في الشمس » ، وبالافلام الحديثة .

■ اسلوب السرد هنا غير معقد ، ولكنه موجز جدا . يحمل الصفر بندقية خاله .. وخاله لا يزال نعته بانه « ولد » ـ « انا لست ولدا » .. الكلمة هنا ـ بعد حزيران خصوصا ـ مشحونة باضافة باهرة لا تكتشف فقط عن الفترة الكيفية في حياة « الصفر » منصور ، بل هي تكشف عن الناس « شبه العاجزة » لحركة المقاومة نفسها .. الصفر لم يعد ولدا .. ولكنه لم يصبح رجلا ايضا ..

■ هل يجب ان نسامي الحدث الروائي بدون بقطع زمني ؟.. ليس من الضروري ابدا .. فالمهم هنا هو : حركة المضمون الفني ، وليس التتابع الزمني ، المنطقي .. ان هذا المقطع ، في الزمن الروائي ، يخدم حركة ابراز المضمون ، وهو يذكرنا بالمونتاج الذي رأيناه في بعض مسرحيات « بريشت » حيث كل فصل منها قائم بذاته ، ومرتبط بغيره في وقت واحد ، والذي ينتمي هنا هو المضمون وليس التتابع الزمني المنطقي للاحداث .. المقطع هنا يخدم الحركة الدرامية للعمل الفني .

■ الانتقالة المفاجئة من الريف الى « الدكتور قاسم » في المدينة ، تنمي جانبا من المضمون ، وتلقي الضوء على نفسية هذه الفئة من المثقفين : تعلمت ، وانحدرت من الريف الى حيفا .. وانحدرت في داخلها القيم الوطنية ..

■ .. العودة الى منصور ، في الريف ، عوده سينمائية بارعة ، رغم انها لا تنسجم مع النفق القديم للقص ، بل بسبب هذا بالذات ، هي عودة بارعة : الدكتور قاسم ، وهي ، كانتا على الشرفة في حيفا « تساولنه الشريحة فاخذها بيرود ، وكي لا يعقد الامور بدأ بأكلها دون شهية ، وكان اخوه منصور في الوعر المحيط بعقد برش حفنة من الزعتر الجاف في نصف رغيف اسمر شديد الخشونة .. الخ » (ص٣٤) .

■ المفتاح ـ الرمز ، غني جدا ، وينطوي على عدة ابعاد : عودة الحياة الى المفتاح بعد ظهور المقاومة . والمقاومة تبدو كأنها مفتاح العودة ايضا .. والمفتاح يشبه القاس . والقاس سلاح ايضا .

◇◇◇

« الى من استشهد في سبيل ارض البرتقال الحزين .. والى من لم يستشهد بعد .. » .

كلمة الاهداء هذه كتبها غسان في مجموعته .. نراه كان يعرف ؟

المناضلون يعرفون ان النضال ليس نزهة ، ولهذا هم يناضلون ، ولهذا هم يعرفون ■

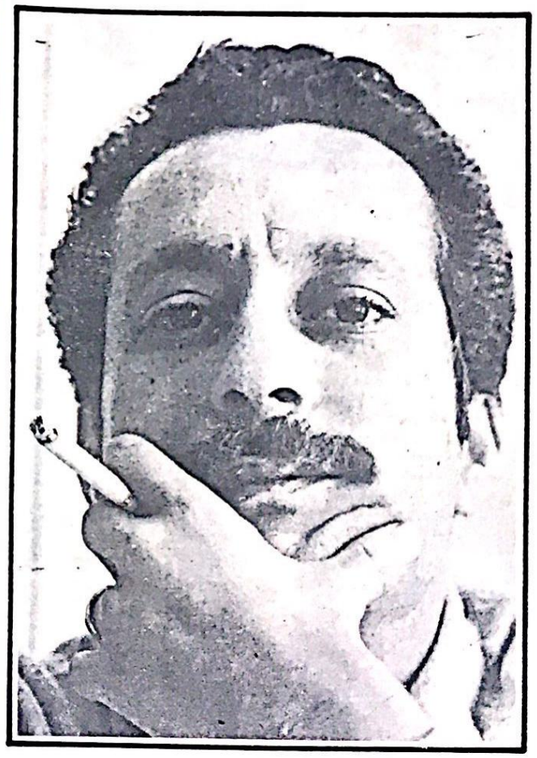

غسان كنفاني

وقفة مسؤولة أمام إستشهاد غسان

بقلم : كريم مروة

غاب غسان في ريعان عمره لم يقل كل شيء . ولم يعط كل ما يستطيع . ومع ذلك فقد قال الكثير واعطى الكثير ، نضالا وفكرا وادبا . لم اعطى ، مبكرا ، للقضية ، بشجاعة نموذجية ، كل حياته .

ولقد كانت القضية الفلسطينية بحاجة لطفله ، فكرا سياسيا وادبا مناضلا . وكل ما كتبه ، منذ ان حمل القلم ، كان في خدمة القضية الفلسطينية . تصدى بجرأة ، منذ عدة اعوام ، وفي ظروف صعبة ، للتعريف بالادب الفلسطيني داخل حدود الاضطهاد الصهيوني . وكان العمل الذي قام به كبيرا وكان خطيرا . والذين تجرأوا بعده ، تطلعوا من جرأته الجراء . وفي كتاباته الرومة ، في صحيفة المحرر اولا ، ثم في صحيفة الانوار ، وفي كتاباته الاخيرة ، في مجلة « الهدف » التي كرس لها كل جهوده ، بحدت ، بشجاعته الكاتب الوطني والمناضل الثوري ، عن كل الامور التي لها صلة بقضيته شعبه . وكان في ما كتب ، واحدا من اقدر كتاب القضية الفلسطينية تحليلا سياسيا للاحداث . ومن ميزاته الاساسية ، انه كان يكتب فتتابعه ، حتى الي كان يختلف فيها ، بقدر معين ، مع الجبهة الشعبية ، وهي المنظمة التي عن ناطقا باسمها في الفترة الاخيرة ، دون ان يسيء بذلك لاستقلاله المناضل الذي ينتمي الى تنظيم سياسي ثوري وشارك ايضا في قيادته .

ولقد كان يمتاز ايضا بالحوار ، رغم العمق الذي كان يميز به طرحه للامور . فقد كان يدرك ان المفكر الحقيقي هو الذي يعرف كيف يحاور الاخرين دون ان يخلي عن حقه في الدفاع ، بقوة ، عن افكاره . وهو يكثر من الافكار التي كان يعرضها في كتاباته عن القضية الفلسطينية ، ما يستحق المناقشة وحتى الرفض . ومع ذلك فان الاختلاف معه بالرأي ، وكثيرا ما اختلفنا ، لم يكن سببا للقطيعة او سببا للعداء .

ولقد حلف ، فيما كتبه ، تراثا تستطيع الثورة الفلسطينية ، بشكل خاص ، ان تعتز به وان يكون ، في بدئها ، اداة ثقيفة الجماهير ، واداة نضال ضد اعدائها .

◇◇◇

لقد كان اغتيال غسان كنفاني تعبيرا عن مرحلة جديدة في المأزم الذي تعرض له حركة المقاومة وكل القضية الفلسطينية . ليس الشكل الذي سحقه المؤامرة هو المهم . الامر الذي يستحق الاهتمام ، قبل اي شيء اخر ، هو الظرف الذي يجري فيه تجديد المأزم وتشديده . فالذي يميز الظرف الراهن هو الانحسار النسبي في تطور الحركة الثورية ، فلسطينيا وعربيا . ان ذلك ، بالطبع ، لم يغير في طبيعة القوى التي تشكل منها الحركة الثورية الفلسطينية والعربية ، والقوى التي تحالف معها . كما لم يغير ذلك ، من طبيعة القوى التي تناضل ضدها هذه الحركة . الا ان الذي حصل ، بشكل خاص ، هو مزيد من الوضوح في تحديد هذه القوى . وهذا الوضوح في تحديد قوى الثورة وحلفائها واعدائها ، كانت تحتاج اليه الثورة ، في اوج نهوضها . لانها كانت تستطيع ، بوضوح ، بالاستناد الى ما كانت تتمتع به من قوة تأثير ، ومن اتساع في الالتفاف الجماهيري حولها ، ان تستخدم ذلك ، في دفع الثورة وفي اعطائها ابعادا اكثر عمقا واكثر شمولا .

ومع كل الذي حصل الآن من تغيرات في النظرة الى الامور ، ومع كل الوضوح في الرؤيا الذي بدأت معالمه تظهر ، فان ذلك لم يصبح ، بعد ، الظاهرة الاساسية المغيرة ، داخل حركة المقاومة .

فلنبق ، لكي نحدد ذلك ، ان نقرأ في بعض المقالات والتصريحات والبيانات الرسمية نماذج جيدة من الوضوح الفكري والسياسي. وليس بكثير ان نوجد بعض اجهزة الثورة الفلسطينية .

ان الظروف التي يجتازها الثورة الفلسطينية ، في اطار الظروف التي يجري في داخل حركةالتحرر الوطني العربية وهي لا تستطيع الخروج من المأزم بها لانها جزء منها ـ تحتم على قيادات الثورة ، من اجل المزيد من الوضوح في مسيرتها ، العمدي العملي السريع المسؤول لحملة من القضايا الاساسية :

١ ـ العمل داخل كل منظمة من منظمات المقاومة ، قبل البحث في امور الوحدة الوطنية ، من اجل ان يكون لها تصور سياسي وفكري واقعي للمرحلة وبرنامج مرحلي للنضال يحدد المهام المباشرة ، في اطار الستراتيجية الاشمل .

٢ ـ الكف عن التصرفات التي تجري بين التنظيمات والتي تسيء الى العلاقات بينها ، وانهاء عملية التمت والاشتباكات ، داخل هذه التنظيمات ، من اجل خلق اجواء افضل للبحث في قضية الوحدة الوطنية داخل حركة المقاومة .

٣ ـ التصدي لقضية الوحدة ، بادراك كامل للمسؤولية ، من قبل كل منظمات المقاومة ، لصعوبات المرحلة ولمخاطر الانزلال عن الجماهير والانحسار الذي تشهده الحركة الآن ، والوقف عن طرح الشعارات التي لا علاقة لها بالواقع والتي تفقد وزنها وقيمتها في قرارات الجزر ، وتخلق اوهاما عند الجماهير ما تلبث ان تنحسر بسرعة . والتصدي العملي للوحدة يتطلب ، في بدايته الامر ، عملية جمع حسابية بسيطة ، لبرامج كل التنظيمات ، والاتفاق على تحديد برنامج حد ادنى للعمل المشترك ، تجمع عليه كل هذه التنظيمات ، دون ان تفقد ، بالضرورة ، كل واحدة منها ، برنامجها واستقلالها .

٤ ـ العامل مع القوى الاخرى ، العربية والدولية، بلغة واضحة، تزيد من عدد الحلفاء والاصدقاء ، فان السلوك الذي يؤدي الى العكس ، يفقد محتواه الثوري ، ويصبح ، موضوعيا ، عملا مضادا للثورة .

٥ ـ الفهم الحقيقي للتطورات التي تجري داخل حركة التحرر الوطني العربية ، ورؤية كل اتجاهاتها وليس اتجاها واحدا منها ، اي رؤيه الاتجاهات السلبية والاتجاهات الايجابية ، وعدم الراهنة المطلقة على اي من هذه الاتجاهات ، والعمل بمسؤولية وعي ، من داخل حركة المقاومة ، وباسمها ، من اجل تغليب الاتجاهات الايجابية في حركة التحرر الوطني العربية ، وتعميق الصلة مع القوى التي تمثل هذه الاتجاهات ، وعدم السماح للقوى اليمينية بتغليب التناقضات الثانوية على التناقض الاساسي ، ومنعها من التأثير على اقسام من الجماهير باتجاه احداث انهيارات وصدامات مصطنعة حول قضايا ليست ، في المرحلة الراهنة ، هي القضايا التي ينبغي ان تنعقد حولها فصائل حركة التحرر الوطني العربية .

٦ ـ تعميق الرابطة بالحركة الثورية العالمية وبطلائعها ، وعلى وجه الخصوص ، بالاتحاد السوفياتي ، وعدم الانجرار في الاعيب بعض الافراد وبعض التركيات الانجرالية الى ينشط ، سرف ، على هامش الحركة الثورية العالمية . ان العلاقة مع الاتحاد السوفياتي ومحمل الحركة الثورية العالمية ليست محل اختبار ، بالنسبة لاية حركة ثورية ، بل هي من الحتميات التاريخية التي تفرض نفسها ، بالضرورة .

ان حركة المقاومة ، وكل حركة التحرر الوطني العربية ، جزء من الحركة الثورية العالمية ، جزء من النضال العالمي ضد الامبريالية والرأسمالية ، من اجل التحرر والتقدم والاشتراكية .

ان كل ذلك ، سنعبرنا ، ينبغي ان ينطلق من فهم حقيقي لحركة المقاومة ، على انها حركة تحرر وطني ثورية ، تستخدم ، في تجنيدها للجماهير الفلسطينية ، كل اشكال النضال ، التي يتحدد استخدام اي منها ، في ضوء الظروف التي تجتازها الحركة في مرحلة معينة .

وهكذا يصبح بمقدور حركة المقاومة ان تتصدى للمأزم الذي تتعرض له قضية الشعب الفلسطيني .

وهكذا ، ايضا ، تستطيع ان تسهم ، من داخل حركة التحرر الوطني العربية ، في العملية الصعبة التي تجتازها ، عملية الصراع الذي يحتدم بين الاتجاهات المتناقضة داخلها ، الاتجاهات التي تريد ، وتستطيع ، عرقلة هذا التقدم .

◇◇◇

لقد كان استشهاد غسان نموذجا آخر ، للطاقات التي تختزن بها حركة الشعب الفلسطيني . فقد بذل هذا الشعب ، من التضحيات ، خلال عشرات السنين ، من اجل قضيته الوطنية ، ما لا يقدر بثمن . ولا يزال يبذل بسخاء . وابطال المقاومة الذين استشهدوا وسيستشهدون ، بدون حساب ، وبدون تردد ، هم نماذج رائعة للشجاعة وللوطنية . وسوف يظل هذا الشعب ، من خلال حركته الوطنية ، يعطي ويعطي . والمسؤولية الكبرى ، بالنسبة لقيادة الثورة ، هي ان تعرف ، دائما ، وفي كل الظروف ، كيف تستخدم هذه الطاقات الثورية عند شعب قادر على التضحية ، مثل الشعب العربي الفلسطيني ، بعماله وفلاحيه وطلابه ومثقفيه . وكلهم اعطى بسخاء وكلهم ضحى ، وكلهم لم يبخل بحياته

ان القضية التي يدافع عنها شعب بمثل هذه التضحيات الجسام ، لا بد ان تنتصر .

من هنا ، مرة ثانية ، مسؤولية القيادة ، في تحديد البرنامج ، في توضيح السياسة والفكر ، في بذل الجهد من اجل توحيد القوى واستخدامها كلها ، وفي تحديد الحلفاء وتعميق الصلة معهم والاستناد الى دعمهم ومساندتهم ■